القسم الرابع

مجانين أريد...!

قصص من واقع الخدمة تفوق الخيال،
مقروءة ضمن نموذج الرشد

obeikandl.com

obeikandl.com

بين يدي القصص

غداة لقاء لم أشهد له مثيلاً من قبلُ... لقاءٍ يعرف باسم "هِمَّتْ"[1]، يجمع رجال الأعمال في مشروع "الخدمة"[2]، الذي يقود سمفونيته العالِم الربَّاني "الأستاذ"[3] محمد فتح الله كولن، في تركيا الحضارة والتحدِّي... لقاءٍ يتمُّ التنافس فيه على التبرُّع بالمنح للطلبة الجامعيين، من داخل تركيا وخارجها.

غداة هذا اللقاء، بدأتُ أفكِّر مليًّا في عملي الثاني ضمن نموذج الرشد، تحليلاً لفكر الأستاذ، وتسليطًا للضوء على مشروع "الخدمة"؛ وقد يسَّر الله تعالى ميلاد كتابي الأوَّل، بعنوان: "البراديم كولن"[4]، الذي تسلَّمته غضًّا طريًّا في "الأكاديميا"، في حفل بهيج، وفورانٍ من العواطف والمشاعر،

---

[1] أي "الهمَّة"، وفيه يلتقي المحسنون المنفقون للتباري في التبرع بالمنح للطلبة، فبعضهم يقدر على المئات، والبعض الآخر على العشرات، وآخرون على الآحاد... والجميع ينفق ما عنده همَّة وإيمانًا، وحسن ظنٍّ في الله وإحسانًا.

[2] أي كل ما ينسب إلى حركة الأستاذ فتح الله كولن، وأصل المصطلح مأخوذ من عبارة ترد عند بديع الزمان النورسي كثيرًا، وهي: "خدمة الإيمان والقرآن".

[3] كلما ذكر "الأستاذ" في هذا المؤلف يقصد به: الأستاذ محمد فتح الله كولن.

[4] أنجز المؤلف ضمن مشروع "الأكاديميا"، ونشر سنة ٢٠١١ في دار النيل بالقاهرة، وكذا في تركيا، ثم طبعة ثالثة في معهد المناهج بالجزائر... بحمد الله تعالى.

تندّ عن وصف الواصف...

غداة هذا اللقاء، وأنا أصلِّي الفجر، خاشعًا لله خاضعًا[٥] ومُسقطًا لما أسمع من آي الذكر الحكيم، على ما أشاهد -خلال جلسات "همَّت"- من آي الفعل الكريم... انقدح في ذهني عنوانُ المؤلَّف الجديد، لكنَّني طردتُ الاستطراد، وأجَّلت إجالة الخاطر، إلى ما بعد الصلاة.

ثمَّ بعد الصلاة فكَّرتُ، وخمَّنت، وحلَّلت... فوافقتُ، وكان العنوان الملهَم، هو: "مجانينَ أريد!"، بغيةَ الاقتراب أكثر من دائرة الفعل، وقد كان "البراديم كولن" أقربَ إلى دائرة الفكر؛ وإن كان الكتابان، بحمد الله، يتراوحان بين الفكر والفعل، وبين العلم والعمل، ويسكنان في رحاب هذه المساحة الشاسعة الرحبة... مما يعرف بـ"نموذج الرشد"[٦].

مجانين أريد!، حفنة من المجانين!

هذا نموذج من نماذج "البراديم كولن"، لعلَّه الأكثر شهرةً وتردُّدا في البحوث والدراسات[٧]؛ لأنَّه يدعو إلى الخروج عن المألوف، بأسلوب خارج المألوف... ويحثُّ على الثورات، في "زمن الثورات"[٨]؛ لكن ليس بدلالة الإقصاء والهدم والكسر، بل بمنهج القبول والبناء والجبر...

أنصتوا إلى النموذج بروح وثَّابة، تهوى الحكمة، وتتعشَّق المعالي،

---

[٥] وكان ذلك ضمن رحلة "رجل رشيد"، لإطارات معهد المناهج والمشاريع الملحقة به، وقد كانت لنا إقامة كريمة في دار الطلبة: "اليُورتْ"، معروفة باسم "الحسَن البصري"، وهي دار تعج بالأرواح الزكية الطاهرة، وبالملائكة الكرام البررة.

[٦] للتوسع في تعريف نموذج الرشد، ينظر: البراديم كولن، الفصل الأول، ص:١١-٢٦.

[٧] للاطلاع على النماذج الأخرى، ينظر: البراديم كولن، الفصل الثاني، ص:٣٧ وما بعدها.

[٨] أي زمن ما يعرف بالثورات في العالم العربي، ابتداء من تونس، ثم مصر... وغيرهما.

تَسعدوا وتُسعِدوا:

"تشبَّعْ بحبِّ الله إلى حدّ الجنون.. لا يغرينَّك عنه حسنٌ ولا يفتننَّك جمال.. اِرقَ على كلِّ المعادَلات، وتسامَ على كلِّ المقاييس.. ارفع شعار الثورة ضدَّ كلِّ مألوف، واهتِف كما هتف الرومي "هلمَّ إليَّ يا إنسان".. ثم ادفن نفسك في غياهب النسيان.. نادِ كما نادى بديع الزمان "واإنسانيتاه"، ثم امضِ ولا تفكِّر بسعادتك الشخصية... أجَل، اِنس رغَد الحياة، انسَ البيت والولَد، واسلُك درب أهل السموِّ الواصلين؛ لتكون من الناجين.

مجانينَ أريد، حفنةً من المجانين!

يثورون على كلِّ المعايير المألوفة، يتجاوزون كلَّ المقاييس المعروفة. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منها يفرُّون وإليها لا يلتفتون. أريد حفنةً ممن نُسبوا إلى خفَّة العقل لشدَّة حرصهم على دينهم، وتعلُّقهم بنشر إيمانهم؛ هؤلاء هم "المجانين" الذين مدَحهم سيِّد المرسلين ﷺ، إذ لا يفكِّرون بملذَّات أنفسهم، ولا يتطلَّعون إلى منصبٍ أو شهرةٍ أو جاه، ولا يرومون متعةَ الدنيا ومالها، ولا يُفتنون بالأهل والبنين...

يا ربِّ، أتضرَّع إليك... خزائنُ رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كلَّ سائل مطلبه، أمَّا أنا فمطلبي حفنةً من المجانين... يا ربِّ، يا ربِّ"[٩].

أمَا وقد استجاب الله دعاءَ "الأستاذ"، وأنزل من السماء وابلاً من الرحمات والخيرات، فأنبتت الأرضُ على إثرها ملايينَ من البشر، يتمثَّلون

---

[٩] مجلة "حراء"، العدد: ١٤ (يناير-مارس ٢٠٠٩)؛ موقع "محمد فتح الله كولن"، صفحة "الفصول"، الرابط: http://ar.fgulen.com/content/view/706/121

صفات الصحابة الكرام، ويتطلَّعون إلى سمات الملائكة العظام... يلهثون وراء القبول والتوفيق، لا يثنيهم عزم، ولا تنكصهم إرادة؛ هم "مجانين" من الطراز الأسمى، و"ثوَّار" من النوع الأعلى.

أمَا وقد كان ذلك كذلك؛ فإنَّ الحكمة تقتضي نقلَ أمثلة وقصصٍ منهم، بغية رسم معالم "الأسوة والقدوة"[١٠]، ونقل التجربة إلى الأمم الأخرى، وهي تشهد لحظات "الميلاد الأحمديّ السعيد"، وتتوسَّم خيرا في "أجيال الأمل"، وترقُب بشغفٍ عودة "جيل الإرشاد"، أولئك هم "فدائيُّو المحبَّة"، و"وارثو الأرض"، و"رجالُ القلب"[١١].

كلُّ واحد من هؤلاء المجانين مدرسة بعينها، كيف وإن زاروك مجتمعين، فتلك بغيةُ الرجاء، ومنتهى الأمل؛ تعالَ معي -أخي- نفتحْ بعضًا من خزائن أسرارِهم، شريطة أن نسافر بنيَّة الهجرة، وندخُل المحراب بأنوار الوضوء؛ فنكون جميعًا في عبادة وذكر، وجهاد وفكر.

---

[١٠] إشارة إلى قول الأستاذ في مقال بعنوان "سحر الإسلام": "وكلَّما أسند الكلام الجيد بالتمثيل الجيد والقدوة الحسنة استطاع تهييج القلوب، واجتياز جميع العقبات، والوصول إلى كل قلب يحمل استعدادا للخير وتوجها له".

[١١] ما بين الشولتين في هذه الفقرة إشارة إلى عناوين لمقالات الأستاذ فتح الله كولن.

openkandil.com

يا علي، احترق تنطلق![12]

استدعى "الخُوجا أفَنْدي"[13] عليًّا، وقد توسَّم فيه أمارات المجاهدة، وظنَّ فيه أسباب الهجرة، فقال له: "اذهب إلى "أرضروم"[14]، وابنِ فيها مدرسة، وأخلص نيتك لله...".

اسَّارع السيد عليٌّ يسابق الريح نحو "أرضروم"، فأقام بها حينًا من الدهر، يشرح الفكرة، ويشحذ الهمم، ويدعو الناس إلى التبرُّع والسخاء... إلاَّ أنَّه لم يلقَ من أهلها إلاَّ ما لقي نوح عليه السلام من قومه، وقد دعاهم "ليلاً ونهارًا"، "علانيةً وإسرارًا"... فلم يزدهم دعاؤه إلاَّ "فرارًا"!

عاد الرجل إلى "الأستاذ"، يجرُّ أمامه خيبة الأمل، ويسوق وراءه معاني الأسف[15]، عاد إليه يشتكي حاله، ويبكي بين يديه إخفاقه.

وما كان عليٌّ ليعتقد السبب في "الأستاذ"، بل كانت شكواه، وكان بكاؤه لله بين يدي "الأستاذ"؛ على أملٍ أن يرشده ويعلِّمه، ويصف له الدواء النافع، والحلَّ الناجع.

---

[12] وقد يصدق كذلك أن يقال: يا علي، احترق ثم انطلق!. فلكلا الصيغتين جمالها الأدبي، ودلالتها العميقة.

[13] وهو صفة الأستاذ محمد فتح الله كولن.

[14] محافظة "أَرضُروم" (Erzurum) هي إحدى محافظات تركيا. عاصمتها مدينة أرضروم ؛ تبلغ مساحتها ٢٤,٧٤١ كم٢ ويبلغ عدد سكانها ٩٣٧,٣٨٩ نسمة. تقع في شمال شرق تركيا. وقد ولد محمد فتح الله كولن في قرية "كوروجوك" العائدة إلى قضاء "باسِينْلَر" التابعة لمحافظة "أَرضُروم".

[15] في أصل اللغة يكون الجرُّ لما في الوراء، والسوق لما في الأمام؛ وقد تعمَّدت قلب الصيغة، إشارة إلى أنَّ السيد علي هو حالة غير طبيعية، وقد انقلبت الموازين عنده ومعه في هذه الحالة.

سأله **الأستاذ**: يا عليّ، هل حدَث لك شرَقٌ، وتوقَّفت اللقمة في حلقك، وشارفتَ على الهلاك... وأنت تفكِّر في أمر مدرسة "أرضروم"؟

عليّ: لا يا أستاذي، الحمد لله، الطعام مستساغ عندي، ولا شيء من ذلك وقع.

الأستاذ: وهل تقطَّع جنبُك، وضبُرت جنباتك،[١٦] وأنت تتقلَّب على الفراش، مهمومًا مغمومًا، بسبب المشروع؟

السيد **علي**: لا أستاذي، الحمد لله، نوْمي هنيٌّ، ولا شيء من ذلك وقع.

الأستاذ: يا سيد علي، هل تفجَّرت براكين في أحشائك، وتقطَّعت أوصالُك إربًا إربًا، وأنت تفكر في المشروع، وفي حال الدعوة ومآلها في "أرضروم"؟

السيد **علي**: لا، أفنْدمْ، صحَّتي جيِّدة، وأنا مُعافى في بدَني والحمد لله، ولا شيء من ذلك وقع.

الأستاذ: إذن، لم تحترق بعدُ في سبيل القضية، فأنَّى ترجو أن تبلغ المنى، وتذلِّل المبتغى؟ يا علي، احترق تنطلق؛ وعُد إلى أرضروم، لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا. يا علي، "احفر في الزمن نفَقًا... وأقم جسرًا... وعن السير لا تتوقف...".

* * *

لهيبُ نار الحرقة مسَّ شغاف قلب عليٍّ، فأحاله بنور الله خزَّانا للوقود، يتفجَّر، ثم يُشعل محرِّكات الأسباب: سببًا... سببًا... حتى وإن كانت في

---

[١٦] أقصد به تصلُّب الجلد الذي يصيب ظهر الحصان جرَّاء الاحتكاك بالسرج أو الرَّحل. وفي لسان العرب: "الضَّبْر والتَّضْبِير: شدة تَلْزِيز العظام واكتناز اللحم".

obeikandl.com

حجم الدنيا ضخامة وثقلاً.

غادر عليٌّ النومَ، وطلَّق الطعام، ونسي متطلَّبات جسده الترابي... فانطلق وهو يكرِّر، بصوت تعلوه بُحَّة من شدَّة البكاء، مَقطعًا من نشيد حفظه منذ أمد:

"واصلون... واصلون...

وبعون الله واصلون...".

* * *

هنالك في "أرضررم"، وهو يسير بين أطرافها، شاهدَ ثكنة عسكرية، تتربَّع على تلالٍ خضراء زاهية، وترسو على أراض شاسعة بهيَّة... ثم قال في نفسه: لعلَّ القدر يسكن هنا!.

ثم تجاوز المستحيل، فطلب لقاءً مع "قائد الثكنة"، ورُفض طلبه... ثم طلب.. ثم رُفض... ثم طلب... ثم رُفض... ثم ألحَّ وألحَّ، فدخل... وقال: "سيدي، جئت "أرضروم" بِنيَّة بناء مدرسة، ولم أجد سبيلاً إلى ذلك، فلمَّا رأيت صرحكم المبارَك، قلتُ في نفسي: لعلَّ هذه الأرض تليق لذلك؛ ما دام الجيش حامي الوطن من الاعتداء والإغارة، والمدرسةُ حامية الوطن من الجهل والجهالة!".

لم يستغرق الحوار طويلاً؛ حتى لان قلب القائد، وليست قلوب البشر، مهما كانوا، من حَجر[١٧]... فقال وقد أحضر أمامه خريطة الثكنة:

"اختر أيَّ قطعة تريد، واشرع عاجلاً في البناء، وإذا احتجتَ إلى

---

[١٧] نستثني من البشر الذين بلغت قلوبهم قسوة الحجر وأكثر، مَن ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم، ومن هم على شاكلتهم، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾(البقرة:٧٤).

المساعدة في شيء، فسآمر الجنود بتقديم يد العون... اذهب، عنايةُ الله تكلأك".

* * *

خرج عليٌّ من الثكنة، كأنَّه في حلم، أو في عالم آخر، يسير... ويسير... وهو يردِّد مقولة الحكيم: "احترق تنطلق... احترق تنطلق... احترق تنطلق".

وها هي مدرسة "العزيزية" في أرضروم تنتصب شاهدًا ودليلاً، وربُّك يخلق ما يشاء ويختار!

obeikandl.com

صاحبة الدَّيْن

طرقت الباب بهدوءٍ وحياء، كأنَّها متردِّدة متوجِّسة، تنتظر القدَر الكريم يُعينها... ففتحت البابَ ربَّةُ البيت، وإذا أمة لله قدَّامها، تظلِّلها غمامةٌ من الكفاف[١٨]، وتتلألأ في محياها هالةٌ من العفاف.

الطارقة: السلام عليكِ ورحمة الله، أختي الكريمة.

ربة البيت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، مرحبًا.

الطارقة: معذرةً، جئتكِ قاصدةً فلا تردِّيني، ظننتُ فيكِ خيرا فلا تخيِّبي ظنِّي.

ربة البيت: إني فاعلةٌ -بحول الله- ما استطعتُ إليه سبيلاً، وحسبي قول الكريم المنَّان: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾(الضحى:١٠).

الطارقة: علينا -أنا وزوجي- ديونٌ، لم أجد وسيلةً لسدادها، إلاَّ في العمل منظِّفة في بيتٍ، أو صائنة لدرَج عمارةٍ؛ فهلاَّ قبلتِ أن أكون خادمةً عندكِ، ولكِ منِّي الثناءُ والدعاء، ومِن الله الأجر والجزاء؟!

ربة البيت: لكن، هلاَّ صنتِ كرامتكِ، وتركتِ زوجك يتدبَّر الأمر، فلعلَّه يكون الأقدر على ذلك؟

الطارقة: أعان الله زوجي وتقبَّل منه، فقد بذل جهدًا، وشاء الله تعالى أن يخسر في تجارته... ثم خاب ظنُّه، وانكسر خاطرُه، وليس له إلاَّيَ رفدا ومعينًا.

---

[١٨] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾(البقرة:٢٧٣).

ربة البيت: كم هي ديونُك؟ وفيمَ كانت هذه الديون؟

الطارقة: عذرًا، لا تحرجيني، فلستُ أبغي أن يحرمني الله الأجرَ والمثوبة، وليس لي في الدنيا ملاذٌ إلاَّ بابه، ولا مطلبٌ إلاَّ معيته.[١٩]

ربة البيت: طيِّب، لا عليك، سامِحيني... ليس ذلك مقصدي... مرحبًا بك... مِن الساعة أنت أختي ومعينتي، والشادَّةُ على أزري... أعِدُك أنك بإذن الله في صون وحصن وأمان.

* * *

عملت "الطارقةُ، صاحبةُ الدين" ما شاء الله لها أن تعمل، بصبر وإخلاص، ومصابرة وتفان؛ ولم يصدُر منها يومًا أنَّة ولا آهة، ولا تحسُّر ولا تذمُّر... فملأتْ ربوع البيت بركاتٍ سماوية، وأنوارًا ملائكية... إلى أن أتمَّت الأجل، وحصلت على ما تريد من مال يكفيها لسداد دينها.

وجاء يوم الوداع، فقالت لربَّة البيت: "بورك لكِ، وفيك، وفيمن ربَّاكِ وأدَّبك... وجزاك عن الدِّين وعن الملَّة خير الجزاء، فقد كنتِ نعمَ المعين، ولك من المولى أجر مفرِّج الكرَب[٢٠]... فاللهمَّ اكتبها في عبادك المحسنين... يا ربَّ العالمين".

بدموعٍ سخينةٍ، منهمرة رقراقةٍ، تمَّت مراسيمُ الوداع... هُما قلبان على الحسن والإحسان تلاقَيا... فانطلقت الطارقة بعيدًا... بعيدًا... إلى أن قاربت الاختفاء... فلحقت بها ربة البيت مهرولة، وقالت: "معذرة، هلاَّ

---

[١٩] إشارة إلى يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(يوسف:٨٦)، ومَن كانت هذه حاله أوتي أجر "الصبر الجميل".

[٢٠] في رواية عمر ﷺ، في الصحيحين، قال رسول الله ﷺ: «من فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة» (رواه مسلم).

أخبرتني الآن فيمَ ديْنك، وقد أبلغَكِ الله مُنيتك؟".

الطارقة: نعم، أمَّا الآن فنعم. صمتَت طويلاً، ثم أطرقت، وقالت: "لقد نذرتُ أنا وزوجي أن نتكفَّل بنفقات طالبٍ للعلم، لا نعرفه ولا يعرفنا، في موكب "الهمَّت"، "خدمة للإيمان والقرآن"؛ راجين العونَ من الملك الديان... فكان ما قصصتُ لك من أمر الخسارة، ولم نشأ أن نُحرم أجر نذرِنا[٢١]؛ ولكنَّ الله هداني إليكِ بفضله، وهداك لقبول طلبي بمنّه... وها نحن اليوم سعداءُ فرحون، مهلِّلون شاكرون... أن بلَّغَنا اللهُ مقصدنا، ولم يخيِّب أملنا... والحقُّ أقول: لقد كنتُ ولا أزال أردِّد -مطلع كلِّ شمس- الحديثَ القدسي الشريف: "أنا عند ظنِّ عبدي بي، فليظنَّ بي ما شاء"[٢٢]... وها أنا اليوم أشهد نفحاته النورانيةَ عين اليقين، بعدما كنت أعلمها علم اليقين...".

* * *

لم تقدر ربَّة البيت أن تنبس ببنت شفة[٢٣]، كأنَّ الخبر العجيب نزل عليها صاعقة، وهي تقيس -في قرارة نفسِها- همَّتها إلى همَّة الطارقة، صاحبةِ الدين!

ولم يطُل المشهد كثيرًا؛ حتى ودَّعتها صاحبة الدين... وهنالك في أفق الملائكة... استقرَّ ظلُّها، وهو يردِّد مقولة الحكيم:

---

[٢١] قال تعالى مادحًا عباده الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾(الإنسان:٧).

[٢٢] رواه ابن حبان بلفظه، وفي صحيح مسلم من حديث جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «لا يموتنَّ أحدكم إلاَّ وهو يحسن الظن بالله»(رواه مسلم).

[٢٣] نبس نَبْسًا، ونُبْسَةً: تحرَّكت شفتاه بشيء؛ وأكثرُ ما يستعمل في النفْي، يُقال: ما نَبَس بكلمة، وما نَبَس ببنت شفة. فهو نابِسٌ. ينظر- المعجم الوسيط للفيروز ابادي.

"أمَّا الأعمال المتوجّهة لرضا الله تعالى وحده، فإنَّ الذرَّة الواحدة منها تعادل الشمس، والقطرة الواحدة منها تعادل البحار، واللحظة الواحدة منها بقيمة الأبد".

obeikandl.com

عربة العمِّ رمضان[٢٤]

هنالك، وراء مسجد صغيرٍ، عثمانيّ النفحات، بحي "أُسْكُودَار"[٢٥]، في الركن الآسيوي من مدينة الإسلام إسطنبول... هنالك، تصفُّ عربةٌ خشبيةٌ، بجوار مثيلاتها؛ غير أنَّها فيما يخفى على أعين الناس، قد تكون أسعدَ منها؛ لا لشيءٍ، إلاَّ للعناية الربَّانية التي نالتها فساقتها إلى "العمِّ رمضان".

ففي صباح كلِّ يومٍ، بُعيْد صلاة الصبح جماعةً، والدخولِ في كنف الله وعنايته، ورجاءِ الفوز بذمَّته وحفظه؛ ثم بُعيْد قراءة تسابيح الصباح، وتلاوةِ أواخر سورة الحشر بخشوع وخضوع.

في كلِّ صباح، بوجهٍ طلق، وحبور فيَّاض، ينطلق "العمُّ رمضان" من مسجده إلى عربته، يتعهَّدها، وينظِّفها، ويزيِّنها بمختلف ألوان الزهور الزاهية، والأعشاب الخضراء اليانعة... ويضع عليها بضاعته الثمينة، ثم يتوجَّه وجهة شاطئ "البوسفور"[٢٦]، حيث محطَّات المسافرين عبر السفن والعبَّارات.

في كلِّ صباح، يقف "العمُّ رمضان" وقفة الجنديّ في ساح الوغى، لا

---

[٢٤] اخترت الاسم "رمضان" رمزًا للسخاء والكرم والجود، وإشارة إلى الحديث الشريف: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلَرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»(رواه البخاري).

[٢٥] هو حي "أسكودار" (Üsküdar) باللغة التركية.

[٢٦] البوسفور أو مضيق إسطنبول بالتركية İstanbul Boğazı، باليونانية Βόσπορος: هو مضيق يصل بين البحر الأسود وبحر مرمرة، ويعتبر مع مضيق الدردنيل الحدود الجنوبية بين قارة آسيا وأوروبا. يبلغ طوله ٣٠ كم، ويتراوح عرضه بين ٥٥٠ متر و ٣٠٠٠ متر.

يتعبُ، ولا يجلسُ، ولا يتأفَّفُ، ولا يشتكي... كأنَّ بينه وبين الكسل طلاقٌ بينيٌّ... يقف هنالك، إلى أن يبيع كلَّ ما لديه، أو ينتهي اليومُ وقد بقي معه بعض البضاعة، فيغادر المكان حامدا شاكرًا.

لم يكن لسان "العمّ رمضان" يفتُر لحظةً عن الدعاء، وعن الصلاة على النبيّ المصطفى ﷺ، وعن التهليل والتسبيح والتكبير... متمتمًا، جادًّا، خاضعًا، مستذكِرًا معاني ما يقول، وهو دومًا يردِّد هذا الدعاء النافذَ، الذي حفظه من "الأستاذ" في بعض دروسه التي كان يلقيها قبل عقدين من الزمان في مسجد كبير، قريبٍ من هذا المكان، وفيه يقول:

"اللهمَّ زدني ثقة بك،

وبدعائي المتوجّه إليك،

واجعل رعايتي للأسباب، وقيامي بها، شعورًا بأداء الوظيفة...

اللهمَّ إن بعدتُ عنك جحودا منّي، فحالي ينطق بأني لن أستطيع شيئًا دونك،

فالطُف بي، لا بدرجة جحودي، بل بدرجة حاجتي إليك"..

هذا ظاهر القصَّة الموسومة بـ"عربة العمّ رمضان"، فما هو ياتُرى باطنُها؟ وما هي حقيقتُها؟

الحقيقة والباطن تكشفهما صُرَّة الدراهم التي كان "العمُّ رمضان" يودِع فيها مدخوله اليوميَّ من الليرات؛ فأنصِتوا إليها وهي تخبرنا أنَّ العمَّ رمضان يقسّمها ثلاثة أقسام:

قسمٍ ليشتري به بضاعةً جديدة ليوم جديد، وقسمٍ ليسدَّ به رمقه ورمق عائلته الكبرى، كفافًا عفافًا، وقسمٍ ثالثٍ، هو محطُّ عناية "العمّ رمضان"؛ ذلك أنَّه خصَّصه لتمويل منحةٍ كاملةٍ لطالب علمٍ، في موكب "الخدمة"

المبارَك.

و"العمُّ رمضان" لا يستقلُّ فعلَه هذا، ولا يحقر صدقته هذه[٢٧]، رغم سماعه ومشاهدته لبعض التجَّار المحسنين الكبار، وهم ينفقون مئات المرَّات أكثر مما ينفق هو.

ولقد ارتقى "العمُّ رمضان" هذا المرتقى؛ لصفاءِ سريرته، وصدقِ نيته، وهو يعرف أنَّ وجهة برِّه ومعروفه هي الله، وأنَّ الغاية هي رضا الله، وأنَّ دفتر الحساب بيد الله، ويعلم علمَ اليقين أنَّ القلَّة والكثرة في حقِّ الكريم المنَّان، لا تخضعان لمقاييس الأعداد، ولا لمعايير العباد.

المهمُّ أنَّ "العمَّ رمضان" يحبُّ عربته؛ لأنَّها في نظره واعتقاده، هي التي ستقف شاهدةً له عند الملك الديَّان أنَّه كان مُحسنًا، وكان منفقًا، بل كان آيةً في البطولة والإيمان، وعنوانًا للجهاد والإحسان.

فطوبى للعمِّ رمضان، وطوبى لعربة العمِّ رمضان!

---

[٢٧] في رواية لحديث أبي جري الهجيمي عند أحمد، أنَّ أبا جري قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو محتب بشملة له، وقد وقع هدَبها على قدميه، فقلت: أيكم محمد؟ أو رسول الله؟ فأومأ بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله، إني من أهل البادية، وفيَّ جفاؤهم فأوصني، فقال: "لا تحقرنّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط" الحديث. وفي رواية أبي ذر: "بوجه طلق".

شمسٌ تسطع من مغربها!

في حديث صحيح رواه الشيخان وغيرُهما، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها؛ فإذا طلعت من مغربها آمن الناسُ كلُّهم أجمعون» (رواه مسلم).

ولمعنى "طلوع الشمس من مغربها" توجيهاتٌ عميقة لدى السادة العلماء، منها توجيه نُقل عن "الأستاذ" أنه: دلالة على انتشار الإسلام في غرب العالَم؛ وأنَّ "الشمس" رمزٌ لنوريات الدين الإسلاميّ الحنيف؛ وأنَّ "الطلوعَ" إشارة إلى انتقال الدين ثانيةً عكس مساره التاريخي، أي أنَّه سيعود من المغرب والغرب، لينتشر في المشرق والشرق.

بغضِّ النظر عن جزئيات هذا التوجيه الحكيم، الذي نُقل إلينا مشافهة، إلاَّ أنَّه يبعث الأمل في النفوس، ويبشِّر بغدٍ للإسلام مشرقٍ؛ فالحكمة إذن تقتضي التفاؤل بالحديث الشريف، والعملَ على تحقيقه في دنيا الناس: بجهاد واجتهاد، وإيمان وإحسان.

* * *

هذا شابٌّ من المغرب الأقصى، هاجرَ إلى الغرب مسترزقا؛ وهنالك شاء الله أن يتزوَّج فتاة طيبة عفيفة طاهرة. وليلة الزفاف الميمون أهدى إليها مفاتيح سيارة من الطراز العالي، عربونَ حبٍّ وصفاء، ودليلَ ودٍّ ووفاء!

لم تفكّرْ العروس[٢٨] طويلاً؛ بل إنَّها بعفوية نادت زميلاتها في

[٢٨] الصواب في اللغة العربية أنَّ "العروس" يقال للرجل والمرأة على السواء. يقول ابن منظور

"الخدمة"، وسلَّمت لهنَّ المفاتيح تبرُّعا ومعروفًا؛ لنشر دين الله وتقوية صفِّ الإيمان والقرآن.

بُهِت[٢٩] الزوج، وخفق قلبه بين حيرةٍ وتعجُّب، وقبول واستنكار؛ إلى أن سألها عن السرِّ، فأوضحت له -بعد أمدٍ- روح "الخدمة" ومداها، ونشرت عليه عبير الهجرة وشذاها؛ فبكى الرجل، ووعد الله أنَّه سيسبقها في هذا المضمار... فانطلق وهو لا يلوي على أحد.[٣٠]

عاد إلى بلده في عطلةٍ، وراح يبحث عن طيور "الخدمة" في المغرب، ويسأل عن حاجاتهم؛ فهداه الله إلى شراء أرضٍ سخا بها لبناء مدرسة من النوع المختلف.

لكن، بعد زمن ليس باليسير، بقي الحال على حاله، وبقيت الأرض يتيمة تستمطر مَن ينبري لتشييدها وإعلاء صرحها... فانتظر البطل حتى عالَ صبرُه، وتجمَّل حتى نفُد اصطباره.

* * *

ذات ساعةٍ، وفي سحر يوم شتائيّ النسمات، هاتَف الزوجُ المحسِن شابًّا معلِّما من شباب "الخدمة"، وقال له: "هلاَّ رافقتي إلى أرض المدرسة، الآن؟!".

تلكَّأ الشاب، وحاول ثنيَه عن جنونه، فلم يُفلح، وكان يحذِّره من كلاب هائمة فوق التلَّة، ومن حرَّاس مسلَّحين، قد يخطئون فيهما ويردوهما هلكى، ولا مِن مغيث... لكن؛ أنَّى له إيقاف إعصار البرِّ والخير إذا تبدَّى؟

في لسان العرب: "العَروس: نَعتٌ يَسْتَوي فيه الرجل والمرأة ما داما في إعْراسِهما".

[٢٩] يصح في اللغة "بَهُت وبَهِت" إذا دهش وتحيَّر، وأفصح منهما "بُهِت".

[٣٠] أي لا يلتفت إلى أحد. وفي حديث قتادة: "فانطلق الناس لا يَلوي أَحد على أَحد".

* * *

فوق الأرض، تحت السماء، وحدهما، والله ثالثهما... رفع المحسن كلتا يديه إلى الأعلى... واصفًا حاله، باكيًا، داعيًا، ملحًّا، متذلِّلاً، هائمًا، عاشقًا... قائلاً: "اللهمَّ ارزقني المال الكافي، لأبني هذا الصرح التربوي، فأكون من المرضيين عندك...".

* * *

لم يكن الله ليردَّه خائبًا، وقد وعده، ووعدَنا، بالاستجابة إذا أخلصنا النية؛ وبالقبول إذا صفَّينا القلب من الشوائب...

وفي ذلك العامِ رزقه الله ثلاثة أضعاف قيمة البناء، فوفَّى وعده، وأعلى صرحَ المدرسة، وأخذ العهدَ على الشابِّ التركي المرافق أن لا يذكر ذلك لأحد؛ إلاَّ أنَّ الشابَّ قبِل منه حذْفَ الاسم وإخفاءَه، ورفَض كتْمَ العبرة والسكوتَ عنها... فأبرِم العقد بين الإثنين، وبلغتْ إلينا القصَّةُ من مصدرها، غير مشوَّهة ولا محرَّفة.

لكن، إلى اليوم، لا يزال الزوج المغربي المحسن في حيرة من أمره، وهو يقول: "سابقتُ زوجي[٣١] ولَمَّا أسبقها بعد، فأنا أنفق مما عندي، وهي تنفق ما عندها!".

ولا يزال السباق حامي الوطيس[٣٢]، والفرسان في المضمار، ولا يزال

---

[٣١] الزَّوْجُ الفَرْدُ الذي له قَرِينٌ: زوج المرأَة: بعلها، وزوج الرجل: امرأَته.

[٣٢] "الآن حمي الوطيس": هذا مثل يُضرب للأمر إذا اشتدَّ كما قال الأصمعي، وهو في الأصل يطلق على تنور من حديد، وأوَّل من استعمله مجازا في اشتداد الأمر هو رسول الله ﷺ، وهو -كما قال أهل اللغة- مِن أفصح الكلام، ولا غرابة في صدور ذلك من أفصح العرب ﷺ" قال عليه السلام يوم حنين: "هذا حين حمي الوطيس!".

صديقنا المنفق ينزغ خيله، ويستنهض فارسه، ويردِّد النشيد الرمزي:

"في غيهب النَّوم سقطتَ،
وفي جُبِّ النسيان وقعتَ...
ما صحوتَ..
ومن الْجُبِّ ما خرجتَ.
وفي نَومك غَطَطْتَ..
وكأنّك غيرَ النوم لا تريد،
وعن أحلامه لا تحيد!"
قم يا نَوَّام..!
يا فارسي المقدام...
انهضْ، واعْتلِ صهْوتي..
وأَطْفئْ غلَّتي،
وسابِقْ نشوتي!"...
قُمْ... قُمْ... قُمْ... يا فارسي!

obeikandi.com

المنديل المبارَك

للمنديل في حياة الناس دلالاتٌ ومضامِين؛ فهو عنوانٌ للنظافة والجمال، وهو دليلُ خدمةٍ وتفان؛ لكن أن يكون رمزًا للبركة والهمَّة، فهذا نادر في دنيا العالَمين.

وهو كذلك في قصَّتنا هذه، فلتُتأمَّل:

كان هنالك في أعماق تركيا العَراقة، بين ثنايا شوارع "إسطنبول" التاريخية النادرة المثال، امرأةٌ تسكن بيتًا مرتَّبًا ومتواضعًا، وتلبس لباسًا محتشمًا ومتواضعًا؛ وكان شعارها المفضَّل، وقد كتبته على ورقة من "الكارتون"، وعلَّقته في مكان من البيت ظاهر، كُتب عليه:

"لقد كان شعارُ قلَّة الكلام شعارًا من شعارات الناضجين، إلى جانب شعار قلَّة الأكل، وقلَّة النوم".

وشاء الله تعالى أن تصنع هذه الأمَة من هذا الشعار قصَّة روحانية الصبغة، ربَّانية الروْح، ملائكية النبرات؛ إنها قصَّة "المنديل المبارَك".

نعَم، هي في ركن ركينٍ من بيتها، بعيدًا عن الصخب والضجيج المنبعث من الشارع المجاور، نصبَتْ طاولة، عليها ماكينة خياطة، وإلى جنبها حُزم من القماش، وعلى الأرفف علبٌ جميلة، فيها تُصفُّ المناديل المباركة بعناية، بعد أن تقَبِّل أنامِل السيدة الفاضلة وبنانَها.

كلامُها ينتظم مناديل مباركةً، بهجةً للناظرين! طعامُها وشرابُها مقتصر على ما يقيم أودها، لتخصِّص باقي الوقت في إبداع مناديلها المباركة. ونومها غفوةً، كثيرًا ما كان فوق رُزم من "المناديل المباركة"!

ثمرة كلِّ ذلك بضاعة تبيعها لبعض التجار الأذكياء، الذين يتسابقون

في شراء كلِّ ما لديها؛ لا لأنَّه أفضل ممَّا سواه فقط، لكن لأنَّهم كذلك يجدون على آثار هذه "المناديل المباركة" شيئا عجيبًا، لا يقدرون له تفسيرًا؛ إنها البرَكة صافيةً، تتنزَّل على كلِّ سِنتٍ يدخل صناديقهم من بيع هذه "المناديل المباركة"!

ما السرُّ في هذه المناديل، يا ترى؟

السرُّ كشفه كاشف خفيٌّ، رجاء الاعتبار والادِّكار؛ لكنَّه أخفى اسمَ صاحبته مخافة إذايتها وإحراجها بالشهرة والاشتهار.

قال صاحبنا: أتعلمون أنَّ رَيع هذه المناديل خصَّصته صاحبته للتكفُّل بطالب للعلم، تحمَّلت نفقاته ومِنحتَه كاملة غير منقوصة؛ وقد أقدمت على برِّها هذا همَّة وإحسانًا، و"خدمةً" لِما أمر الله به أن يخدم، وإعلاء لِما أمر الله به أن يرفع[٣٣]:

والحقُّ أنَّ صاحبة "المناديل المباركة" ببرِّها هذا، تعلِّم العالَمين درسًا لا يُنسى، عنوانه: متى علت الهمَّة نزلت البركة، وحيثما تتنزَّل البركات توجد عين الله كالئةً حافظة، تملأ الأجواء سعادة وحبورًا، ليس يَعرِف مَداهما إلاَّ الحواريُّون المقرَّبون، الذين قال فيهم ربُّ الجلال، وهذه المرأة إن شاء الله منهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۞ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ ۞ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾(الواقعة:١٠-١٤).

فاللهمَّ احشرنا معهم، يا رحمن يا رحيم.

---

[٣٣] مصداقًا لقوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(المجادلة:١١).

عقمٌ دون عقم

ممَّا علق في حافظته منذ الصغر، وهو يتردَّد على المنابر والمواعظ، أنَّ الهجرة من خصوصيات العهد النبويّ، وأنه «لا هجرة بعد الفتح». وبقي على تلك القناعة ما شاء الله له أن يبقى؛ إلى أن جاء اليوم المشهود، فساقه القدر إلى واعظ محمود؛ سمع منه ما هزَّ ترسُّبات فُهومه هزًّا، ولزَّ فكرَه وقلبه في قرَنٍ مع "الخدمة" لزًّا[٣٤].

فبعد سقوط روسيا، وبينما العالَم يتفرَّج ويحلِّل، والعالِم يصف ثم يقف؛ جمع "الأستاذ" شبابا من كلِّ الأطياف، في درس تاريخيٍّ لم تعرف تركيا له مثيلاً منذ أمد، وقال لهم، بنبرةٍ باكية، ومنطقٍ أخَّاذ: "الهجرة منوطة بمهمَّة النبوَّة، لا بذات النبيِّ؛ فما دامت الأسباب باقية، فإنَّ الحكم باقٍ إلى يوم الدين".

* * *

لم يتعثَّر "الأستاذ" عند هذا الحُكم؛ لكنَّه تجاوزه إلى إنزال الحكم إلى أرض الناس، فقال: "هل لي بشباب يهاجرون إلى أوراسيا وروسيا، وينشرون الإيمان والسلم هنالك؛ يبنون المدارس والمعاهد والمنشآت؛ فيكونون غيثا للعطشى، ومحرابًا للحائرين؟!"[٣٥].

---

[٣٤] لـزَّ في قرَن: مثل يُضرب لأمرين قُرِنا مع بعضهما البعض، ويقال للبعيرين إذا قرنا في قرن واحد قد لُزا ؛ يقول جرير:

وابـن الـلـبـون، إذا مـا لُـزَّ فـي قـرَنٍ لـم يستطـع صـولـة الـبـزل القـناعيس

[٣٥] يقـول فريـد الأنصـاري، رحمـه الله، فـي مقال بعنـوان "رجـال لا كأي رجـال": " لولا أني

استجابت القلوب للقلب الصادق، وأذعنت العقول للفكر الحاذق؛ فما هي إلاَّ أيام حتى تجمَّعت آلاف الطلبات، مرفقةً بجوازات السفر؛ كلُّهم طلَّق الركون وحطَّم السكون، ونوى الحركة وقصد البركة؛ فتنادت الجموع:

"هيا بنا يا صاح[٣٦]، إلى هجرة قال فيها ربُّ الأنام: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾(النِّسَاء:١٠٠).

هيا بنا يا صاح، هذه فرصتنا!... سواء حيينا أم متنا، بلغنا المبتغى أم أخفقنا؛ فإنَّ الأجر واقعٌ على من لا يخلُف الوعد، واقعٌ على مَن ديدنه أن يعطي ويجزل في العطاء... هيا بنا... هيا".

* * *

هنالك في "سيبيريا"[٣٧] كانت أنفاسُه تتردَّد، بينما كلُّ شيء بارد حوله

رأيتُهم لقلتُ إنه مجرّد وهم أو هُراء أو خيال.. ظلال نورية لجيل الصحابة الكرام، جمعوا بين خصلتين عظيمتين من خصالهم الكبيرة: الهجرة والنصرة. فلم يكن منهم مهاجرون وأنصار، بل كانوا مهاجرين أنصارًا، وللصحابة فضلهم الذي لا يبارى!" (انظر: مجلة حراء، العدد: ١٣ / أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

[٣٦] يا صاح، أي يا صاحبي. يقول إيليا أبو ماضي في رائعته بعنوان "يا صاح":

يا صاح كم تفّاحة غضَّة يحملها في الروض غصنٌ رطيب
ناضجة ترتجُّ في جوّها مثل ارتجاج الشمس عند المغيب

[٣٧] "سيبيريا" (Siberia): هي الجزء الشرقي والشمال الشرقي من روسيا . يمتد غربًا من جبال الأورال حتى المحيط الهادي شرقًا، ومن المحيط المتجمّد الشمالي حتى حدود كازخستان ومنغوليا والصين جنوبًا؛ وتمثل ٧٧٪ من مساحة روسيا ١٣,١ مليون كيلومتر مربع.
ولقد تأسست أوَّل جالية إسلامية في سيبيريا في النصف الثاني من القرن الهجري الأوَّل؛

إلى حدِّ الهلاك[٣٨]، ازداد قلبه وقلب الواصلين أمثاله حرقة واحتراقًا، فأحالوا الدنيا ربيعًا من المحبَّة والدفء والسلم، وصبغوا -بأيديهم- رجالاً ونساء، سفوحًا للفهم والعلم والحلم.

* * *

بعد ثلاثةٍ من السنين مرَّت كالبرق، جاءه الأمر بمغادرة المكان، والعودة إلى ربوع البلاد؛ فقد أدَّى الأمانة، وبلَّغ الرسالة، وخلَّف بعدَه مَن يواصل المسير، ويحمل الناس إلى أزكى مصير...

استجاب للأمر وما كان ليعصي؛ غير أنَّه سأل مَن فوقه علَّه يلين ويلغي القرار... سأله: "وما السبب في عودتي، يا ترى؟!... أنا لا أجادل، لكن فقط ليطمئنَّ قلبي".

قال "الخوجا": "لقد أثبتت البحوث الطبية أنَّ مَن كان أصله من البلاد الحارَّة، وسافر إلى الأصقاع الباردة، ومكث فيها أكثر من ثلاثة أعوام؛ فإنَّه قد يتعرَّض للعقم، وقد تزول خصوبته الرجولية".

أي بعد حوالي ٧٥ عاما من الهجرة فقط. قدموا من بخارى وسمرقند وقازان بآسيا الوسطى وعملوا على نشر الإسلام بين قبائل الإسكيمو. وأوَّل دولة إسلامية خالصة قامت بها كانت عام ٩٧٨هـ - ١٥٧٠م، في عهد الإمبراطور "كوشيم خان". ودام حكمها لعشر سنوات؛ حتى احتل الروس القياصرة عاصمتها في ٩٨٨هـ، ورفضوا إقامة أي كيان سياسي لها، فظلت حتى اليوم كإقليم تابع لجمهوريات روسيا الإتحادية. والعجيب أنَّ مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قد طبّق كما في العهد النبوي، حين هجر الإتحاد السوفيتي ملايينُ البشر، فاحتضن المسلمون في سيبيريا أفواجا من المسلمين المهجَّرين في بيوتهم، واقتسموا معهم لقمة العيش، وخففوا عنهم قسوة الغربة؛ حتى اندمجوا في المجتمع الإسلامي هناك.

[٣٨] قيل لنا: إنهم يخرجون من البيت لقضاء الحوائج في سيارتين، حتى إذا ما تعطلت الواحدة استقلوا الثانية، وإلاَّ فقد يتحوَّلون في بضع ساعات إلى جليد، ولا من مغيث، ودرجة الحرارة هنالك حوالي ٥٠ درجة تحت الصفر.

obeikandl.com

ثم واصل بيانه، وقال: "ونحن لا نريد أن نلحق الضرر بأحدٍ، ولبُّ ديننا وخدمتنا القاعدةُ الخالدة: لا ضرر ولا ضرار، والضرر يزال".

تقبَّلها المهاجر على مضض، واستجاب للنداء وما رفض؛ غير أنَّه ترك مقولةً لو كتبناها بماء الذهب لما وفيناها حقَّها ومستحقَّها، لكن حسبها شرفا أن تستقرَّ في قلوب العالَمين، مِن خلال هذه القصَّة، لعلَّها تبعث في الآفاق مهاجرين.

قال المهاجر، لا حرمنا الله أجره:

"هما عُقمان: عقم الأجساد والأبدان، وعقم القلوب والأديان... فلقد كنت في سيبيريا معرَّضًا لعقم الخصوبة والرجولة، أمَّا اليومَ، وأنا في بلدي، فأنا مهدَّد بعقم الأمانة والرسالة... وهذا ما أسميه: عقما دون عقم"[٣٩].

[٣٩] عقم دون عقم: الصيغة مستوحاة من بابٍ في صحيح البخاري، هو باب "كفر دون كفر". وللاستعارة فحواها ومدلولها؛ ولا أقصد الكفر طبعا، وإنما أقصد أنَّ الشرَّ لا يتمحَّض، وأنَّ الخير لا يتمحَّض، والعاقل من ملَك الميزان، وقاسَ الكليات.

obeikandl.com

فقط، عشرة آلاف دولار...

مِن عادة الناس -وأنا منهم- أنَّهم يقيمون المفاضلة بين وظيف ووظيف، وبين منصب ومنصب، بقدر ما يدرُّ من أجرة، وما يهبُ من رضًا نفسيٍّ، وما ييسِّر من استقرار عائليٍّ... وقد يخطئون ويشتطُّون، فيقولون: "نحن نريد أن نضمن حياتنا!". وإنَّ منهم لَمَن يتجاوز الخطأ في القول إلى التحقيق في الاعتقاد، ويجاوز الزلَّة في اللسان إلى اليقين في الجنان.

وليس "محمودٌ" من هذا المذهب، كيف ذلك؟

* * *

هو شاب في مقتبل العمر، أقبلت عليه الدنيا بخمائلها، فأكسبته الرضا والقبول، وألبسته ثوبا من الهالة والوصول؛ حتى اصطفَّت الشركات والوزارات والهيئات في طابور طويلٍ؛ تخطُب وُدَّه، وتغريه بالأكثر والأدوم والأعجل؛ إلى أن مُنح، وهو المهندس الخرِّيت[٤٠]، أجرةً عشرة آلاف دولار شهريًّا؛ هذا، عدا المنح والعلاوات والفرص...

كيف لا وهو المعدن الثمين، والجوهرة النادرة المثال، علما وخُلقا، وآثارًا وإبداعًا؟!.

"إنّه نسيجُ وحدِه"[٤١] كما قالت العرب.

---

[٤٠] في مصادر اللغة: "الخريت: الدليل الحاذق بالدلالة، كأنه ينظر في خرت الإبرة. وهو: الماهر الذي يهتدي لأخرات المفاوز، وهي طرقها الخفية ومضايقها".

[٤١] كان الصحابة الكرام، عليهم شآبيب الرحمة، يصفون الصحابي الجليل عمير بن سعيد، بقولهم: "إنه نسيج وحده"، وكان عمر ﷺ يقول: "وددت لو أن لي رجالاً مثل عمير أستعين بهم على أعمال المسلمين". فلينُظر وجه الشبه مع بطل قصتنا هذه!.

* * *

شاء الله، ولا رادَّ لِما يشاء، أن يسوقه إلى ربوع "الخدمة": شابا يافعا، ويتدرَّج في النفع والعطاء يومًا بعد يوم؛ إلى أن جاء اليوم المشهود، ويُختبر في أحبِّ شيء، وبأشدِّ الصور قسوةً... إنَّها لحظة الاختيار، بين المصلحة والواجب، بين الأجرِ والأجرة، بين العاجل والآجل؛ وصدق من قال: "إذا أردتَ أن تحيِّره فخيِّره".

حضر درسًا قرآنيَّ الأنفاس، نبويَّ الزفرات، صحابيَّ الوثبات؛ ألقاه "أستاذٌ" تزوَّج العفاف منذ نحب، وحمل الهمَّ منذ نشب، وفي الدرس قال بلسان حاله قبل لسان مقاله: "ألا إنَّ الهجرة قد وجبت، فمن منكم يشتري الجنَّة، فيغادر الراحة إلى الأبد، ويزمُّ حقائبه، ويقصد أوراسيا... هنالك طيبةٌ بروحها السنيِّ، وهنالك المدينة المنوَّرة بعطرها الشذيِّ... هنالك في أوراسيا تسكن أرواح الصحابة الكرام، ممن هاجر وهجر، وممن قال فيهم ربُّ الأنام: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(الحشر:٨).

* * *

وقعت الواقعة، ونزلت الصاعقة، وبدأ الحوار الداخليُّ بين شهوة الفتى وضميره:

"أيترُك عشرة آلاف دولار أجرةً شهرية، والراحةَ والسعادةَ في مغاني إسطنبول الفوَّاحة، وبين مرابعها الصوَّاحة؟!... أم يذهبُ إلى هنالك، حيث القفر اليباب، والمخاطر المحدقة، والبعدُ عن الأهل والولد، وعن الحيِّ والبلد... ولا ينال من الأجرة -هنالك- إلاَّ ما يسدُّ رمقه، ويقيم

أوده... وقد يُحرم هذه الأجرة يومًا، أو يُطلب منه التبرع ببعضها إذا اقتضى الحال؟!

ما هذا المنطق؟! وما هذه المفارقات؟!"

* * *

لم يطق القلب والضمير، ولا الإيمان واليقين، صبرًا، ولم يتقبَّلا الصمت عن التهمة الموجَّهة إليهما، وهما بالحجَّة أولى، وبالبيان أدرى، فقالا:

"نعم، سنخسِر عشرة آلاف دولار؛ ولكنَّنا سنربَح[٤٢] جنَّة عرضها السموات والأرض، أُعدَّت للمتَّقين...

نعم، سنخسِر السكون والهدوء، وسنربَح رضا الملك القهَّار، الذي يهب السكون والهدوء للقلوب اليقظة الضارعة؛ حتى وإن ألقيت في نار سقر، ومرِّغت في قرارة جهنَّم...

وما السكون إذا لم يكن ربانيًّا إيمانيًّا؟!. أمَّا ذلك الذي تصنعه المادَّة وتُغليه الأموال، فحُقَّ لنا أن نسمِّيه "الركونَ" لا "السكون"، "الخذلانَ" لا "السعادة".

* * *

قرَّر محمودٌ، ومحمودٌ محمود... وما تردَّد هنيهةً، بل فصل في المعركة بضربة قاضية، لا بالنقاط فقط؛ فطلَّق الذي هو أدنى، وتعلَّق بالذي هو خير... ثم سافر بعيدًا... بعيدًا... إلى بلاد "الفيكنغ" قديمًا... وها هي

---

[٤٢] في دلالة الربح والخسارة، ينظر الحديث العظيم الذي يروي حادثة الصحابي الجليل أبي الدحداح ﷺ، وقوله الرسول ﷺ له: "ربح البيع أبا الدحداح، ربح البيع". وللحادثة كذلك علاقة متينة بنسق قصَّتنا هذه.

شمسه تشعُّ نورًا ودفئًا على السالكين، ثم ها هي بركاته تنير الدرب للواصلين.

إنَّه "مصعب بن عمير ﷺ" هذا العصر؛ إنَّه من طينة "سفير الإسلام"، الذي اصطفاه الرسول الكريم ﷺ "لرجاحة عقله، وكريم خلقه"... ووقف على جثته يوم أحد، وتلا قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾(الأحزاب:٢٣) ثم ألقى -في أسًى- نظرةً على بُردته التي كفن بها، وقال: "لقد رأيتك بمكَّة، وما بها أرقُّ حلَّة ولا أحسن لمَّة منك. ثم ها أنتذا شعثُ الرأس في بردة".

فألفُ ألفُ مبروكٍ لعصرنا أن وجد فيه محمود، والسلام على محمود يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيًّا.

openkandil.com